العرب
السبت 2020/04/11
السنة 42 العدد 11674

الأدب والصحافة، تذكرة ذهاب وإياب

الصحف طورت اللغة وخلقت أجيالا أدبية وساهمت في إطلاق الحوار الفكري وتجديد الإبداع

إن العلاقة بين الأدب والصحافة قديمة وعريقة، حيث كلاهما يكمّل الآخر، فلطالما ساهم الأدب ونشر القصص والمقالات الأدبية والفنية في انتشار الصحف، بينما ساهمت الصحف بدورها وما زالت تساهم، شأنها شأن منابر أخرى، في دعم الساحة الثقافية.

حسن الوزاني
كاتب مغربي

قد لا يبدو غريبا أن تظل العلاقة بين الصحافة والأدب محاطة بكثير من التماهي، إذ لا يمكن تصور وجود أحدهما دون الآخر.

كما يندر أن نجد كاتبا يُقدم على نشر كتبه دون المرور عبر الصحافة، سواء عبر كتابة مقالات عابرة، أو عبر نشر نصوص إبداعية، أو عبر حوارات، أو على الأقل عبر ما يُكتب عنه. كما يندر أن تقفل الصحيفة الباب أمام أركانها الثقافية.

الروايات في الصحف

جانب من هذه العلاقة يعود إلى لحظة "الزواج الكبير" بين الصحافة والأدب المتزامنة مع حلول القرن التاسع عشر. إذ ستشكل الصحافة بإيقاعها الخاص والمختلف مصدر إغراء لكثير من الأدباء الباحثين عن فضاءات أوسع على مستوى تداول أفكارهم وعن قراء جدد، مع ضمان مصدر مالي قار، لم يكن ليوفره نشر عشرات الكتب.

وسيكون ذلك وراء التماهي بين مفهومي الأديب والصحافي إلى درجة أن عددا من قواميس اللغة الصادرة خلال منتصف القرن التاسع عشر كانت تُعَرّف الأديب بالصحافي والصحافي بالأديب. وذلك قبل أن تصير للصحافة مهنتها ومدارسها ومؤسساتها الخاصة.

في الواجهة الأخرى، كانت الصحافة، سواء اليومية منها أو الأسبوعية أو الشهرية، في حاجة إلى البحث عن قراء جدد، من باب الرفع من مبيعاتها وتطوير قدرتها الاقتصادية. وذلك في سياق التنافس بين العناوين التي تتقاسم نفس السوق.

وكان ذلك يقتضي العمل على تنويع منتوجها، بعد أن استنفدت أخبارُ الحوادث قوة إغرائها. وكانت وصفة اللجوء إلى الأدب والأدباء هي الأفضل، حيث صارت الروايات المتسلسلة، على سبيل المثال، الضيف المدلل الذي يشغل الصفحات الأساسية للكثير من الصحف. بل إن كثيرا من الجرائد، ومنها على سبيل المثال جريدة الفيغارو الفرنسية، كانت تحرص على إغراق جدران مدينة باريس وغيرها من المدن الفرنسية بملصقات خاصة بالإعلان عن مواعيد نشر رواية متسلسلة ما، باعتبار ذلك حدثا ينتظره الجميع، كما تكشف عن ذلك الملصقات المرقمنة التي يتيحها موقع غاليكا التابع للمكتبة الوطنية الفرنسية.

وبذلك لن يكون غريبا أن تصل الكثير من الأعمال الروائية الكبرى إلى القارئ عبر الجرائد قبل أن تجد طريقها إلى أيادي الناشرين. ومن بينها رواية "الفرسان الثلاثة" التي كانت وراء صناعة نجومية الكاتب الفرنسي ألكسندر دوما. وذلك بالإضافة إلى رواية "الكابتن فراكاس" للكاتب تيوفيل غوتييه. وهي التي تجرّ وراءها قصة طريفة، حيث كُتب لها أن تُنشر بإحدى المجلات الباريسية، بعد مرور ثلاثين سنة على تعهد غوتييه بتسليم مخطوط العمل إلى ناشره أوجين راندل.

بينما ستعرف الرواية، التي أوصلت كاتبها إلى ردهات المحاكم، نجاحا مذهلا، يعكسه توالي طبعاتها وترجماتها ووصولها إلى السينما والتلفزيون والمسرح عبر ما يناهز الثلاثين عملا.

> قد تكون العلاقة بين الأدب والصحافة وراء خلق مشهد إبداعي بكامله، خصوصا في لحظات غياب دور النشر

لن يظل الأدب العربي بعيدا عن تقليد نشر الروايات المتسلسلة على مستوى الجرائد، وإن كان ذلك يتم عبر حالات قد تبدو معزولة. ولعل من أهمها روايات جرجي زيدان التي كان يواظب على نشرها بمجلة "الهلال" والعديد من أعمال نجيب محفوظ والتي تبقى من أشهرها روايته "أولاد حارتنا". وهي الرواية التي قد نُشر البعض من فصولها بجريدة الأهرام، قبل أن يتم توقيفها، بعد أن دخلت جهات دينية على الخط، تحت ذريعة "تطاول الرواية على الذات الإلهية".

مع تراجع حضور الروايات المتسلسلة، اعتبارا لتغير طرق التواصل الأدبي ولتطور مجال النشر، ستصير الأعمدة الملجأ المفضل للكثير من الأدباء الباحثين عن مساحة منتظمة للكتابة. منها الأعمدة الباهتة التي لا تصلح إلا لملء صفحات الجرائد، من دون أن تخلف أي أثر لدى القارئ. ومنها القوية التي تفرض على القارئ ضبط موعده مع إطلالتها اليومية أو الأسبوعية.

المقالات والأدب

إن كان إغراء كتابة العمود، يتم أحيانا على حساب الكاتب وإبداعه. ولعلها حالة القاص المغربي الراحل عبدالجبار السحيمي، الذي اشتهر بعموده "بخط اليد"، قانعا بمجموعتيه القصصيتين "مولاي" و"الممكن من المستحيل"، الصادرتين خلال منتصف الستينات من القرن الماضي. وإن كانت مكانة السحيمي قد ظلت محفوظة باعتباره أحد أعلام الكتابة القصصية في المغرب.

في كثير من اللحظات، قد تصير الصحف وملاحقها الثقافية، بالإضافة إلى المجلات الأدبية، معبرا أساسا لانبثاق الأجيال الأدبية والثقافية، خصوصا في الوقت الذي يكون فيه مشهد النشر منكفئا على نفسه وغير قادر على مسايرة إيقاع إنتاج الأفكار وتداولها الواسع. وذلك لما تمنحه من إمكانيات النقاش والتداول الثقافي والإبداعي والفني، واضعة مسافتها الخاصة التي تميزها عن الكتاب، رغم الانتماء المشترك إلى نفس الوسيط الورقي.

وأكثر من ذلك، قد تكون العلاقة بين الأدب والصحافة وراء خلق مشهد إبداعي بكامله، خصوصا في اللحظات التي تغيب خلالها دور النشر وغيرها من حلقات صناعة الكتاب. إنها الحالة التي قد يضيئها سياق ظهور الأجناس الأدبية الحديثة ببلد كالمغرب. إذ ستكون الصحافة، كما يرى أحمد المديني في كتابه "فن القصة بالمغرب"، وراء مسار ظهور الكتابة القصصية بالبلد.

وتمّ ذلك، سواء من خلال إسهامها في تطور الأنواع النثرية باعتبارها أشكالا ممهدة لظهور الجنس القصصي بمفهومه الحديث، أو عبر منحها فرصة اللقاء المباشر بالنصوص القصصية المشرقية والغربية، المنشورة خصوصا في الصحف والمجلات الواردة على المغرب. كما تم الأمر نفسه عبر دَور الصحافة باعتبارها فضاء لنشر النصوص القصصية المغربية الأولى، وذلك في الوقت الذي لم يتجاوز عدد المجموعات القصصية المنشورة خلال مرحلة الحماية الثلاث مجموعات فقط.

أقدمت، قبل سنوات، دار النشر الفرنسية جي.أف فلاماريون على إطلاق سلسلة خاصة بإعادة نشر مقالات الأدباء الفرنسيين المنشورة بالصحف اليومية، حيث همت الدفعة الأولى من السلسلة أعمال تيوفيل غوتييه وبودلير وإميل زولا. ولعلها ليست المرة الأولى ولا الأخيرة التي تتم فيها العودة إلى مثل هذه النصوص، في إطار الدراسات الغربية. وذلك في الوقت الذي تكاد تغيب فيه الأبحاث العربية في هذا المجال، صامتة بذلك عن جانب أساس من تاريخ الكتابات الأدبية العربية.

الصحافة خلقت أجيالا ثقافية (لوحة للفنان سعد يكن)

باحثة روسية تحذر من المثقفين والعلماء التنويريين

عمان – يبدو عنوان كتاب الباحثة الروسية أولغا تشيتفيريكوفا "دكتاتورية المستنيرين"، الذي ترجمه الدكتور باسم الزعبي صادما؛ فالدكتاتورية غالبا ما ترتبط بالأنظمة السياسية الشمولية، وقلما يستخدم هذا المصطلح خارج هذا الإطار.

ومن جهة أخرى، ثمة مفارقة كبيرة في أن يظهر المستنيرون، الذين يفترض أن يكون لهم دور تنويري مناقضا نظريا للدكتاتورية، هذه النزعة، فكيف تكون الدكتاتورية في الفكر والعلم والمعرفة؟

يكتشف القارئ من خلال هذا الكتاب، الصادر حديثا عن "الآن ناشرون وموزعون"، أنماط الممارسات الدكتاتورية في أوساط المستنيرين، فإذا كانت الدكتاتورية تعني فرض الوصاية على الناس وقولبتهم في أطر محددة، فإن هناك دورا خطيرا اضطلع به أصحاب المشاريع الفكرية والثقافية والعلمية على مدار التاريخ، وخاصة المنتمين إلى جماعات لا يعرف الكثيرون عنها وعن نشاطاتها إلا القليل، ورغم ذلك فقد تغلغلت في حياة الشعوب وثقافاتها، ولم يعد بالإمكان فصلها وتمييزها.

وبحسب المؤلفة، يبدو أن هذا الخلط كان مقصودا بحد ذاته؛ لأن نشر الأفكار المطلوبة والمرغوب فيها لا يكون عبر كنس الفكر القائم ومحوه وتحويل عقول الناس إلى صفحات بيضاء يكتب عليها ما يراد، إذ لا ينكر أحد أن هناك أفكارا، سواء أكانت فلسفية أم معتقدية أم سلوكية أم أخلاقية، استقرت عميقا في الوجدانين الجمعي والفردي، ويبدو من الصعب تغييرها.

وترى تشيتفيريكوفا أن أصحاب البرامج التي تسعى للسيطرة على عقول البشر ووجدانهم لغايات فكرية أو سياسية أو اقتصادية، لا يتوقفون عن بذل جهودهم في هذا المجال، ولا تتوقف عقولهم عن ابتكار كل الوسائل والأدوات لتحقيق هذه الغاية، وبناء على ذلك تطورت وسائل الإعلام والدعاية، وأدواتها من أقمار صناعية، وإنترنت، وأجهزة هواتف ذكية، وشاشات تلفزيونية، وسينما وغيرها من التكنولوجيات الحديثة.

وتضيف المؤلفة أن هذه الجماعات حولت الفكر والعلم إلى أيديولوجيا، وأنها تسعى إلى بناء "دين جديد" تتمكن -انطلاقا منه- من تأكيد سيطرتها على الأفراد والشعوب، وأن الهدف النهائي لدى هذه الجماعات هو السيطرة على الأفراد والشعوب، وما الفكر إلا أداة لهذه السيطرة، وما الدعوة إلى دين جديد إلا وسيلة لتحقيقها، فأتباعها يدركون أن الدين يمثل أقوى وسيلة لتوجيه البشر، لذلك يريدون أن يستبدلوا دينا بدين، دينا يتوافق مع ظروف العصر وطبيعته، والتطورات التي طرأت على المجتمعات البشرية أثناء مسيرتها عبر آلاف السنين.

تؤكد المؤلفة أن هذه الجماعات تنظر إلى الديانات التي استقرت عليها شعوب العالم، على أنها عقبة كأداء في طريقهم لتثبيت سيطرتهم على هذه الشعوب، فالديانات عموما بما اشتملت عليه من قيم أخلاقية وتعاليم وأفكار ما زالت قابلة للتكيف مع حركة التاريخ، وما زالت تستحوذ على عقول وقلوب جماهير واسعة، وتشكل محركا قويا لفاعليتهم السياسية والاجتماعية.

وتوضح تشيتفيريكوفا أن تلك الجماعات الفكرية نشأت في أحضان الرأسمالية، وهي على اختلافاتها الشكلية، تبقى مخلصة فقط للمال وتعمل في خدمته، فقد خاض أتباع الرأسمالية معارك فكرية وثقافية علاوة على السياسية مع خصوم أيديولوجيين كثر، وحققوا انتصارات معينة في بعض الحالات (على سبيل المثال في الصراع مع الأيديولوجيا الشيوعية والأيديولوجيا الفاشية)".

تقول المؤلفة في مقدمة الكتاب "نشهد اليوم ثورة عالمية في المجال الثقافي، تهدف إلى تغيير جوهر الإنسان ذاته. كل هذا يظهر المضمون الديني لـ'النظام العالمي الجديد' الناشئ بشكل جلي". وترى تشيتفيريكوفا أن السنوات الأخيرة تشهد اتجاه النخب الاقتصادية، والمالية، والسياسية، والإدارية، وخاصة النخب في التعليم والثقافة، من الأدب والسينما والموسيقى، والتلفزيون، والأعمال الاستعراضية، كل هؤلاء يسعون إلى تغيير بناء الإنسان الروحي جذريا.

> اليوم تشهد كل الشعوب ثورة عالمية في المجال الثقافي تهدف إلى تغيير جوهر الإنسان واقتلاع جذوره الروحية

فرفض الإنسانية، بحسب المؤلفة، يتحقق برفع شعار الإنسانوية العابرة، الذي ينظر إليه أنه مرحلة أخيرة وختامية للإنسانية، ويهدف إلى تذليل الطبيعة البشرية ذاتها التي تمثل الجسد غير الكامل (الناقص) والوعي الضعيف. وهذا يعني القضاء الذاتي على الإنسانية، إذ أعلن أن حق الإنسان يكمن في أن يظل الإنسان قابلا للتعديل حتى لا يعود إنسانا.

وكما هو واضح، ووفقا لكلام "العلماء"، فإن الدوائر العالمية المسيطرة سيحاولون تغيير وعي البشرية إلى "وعي تكنوتروني" يتسم بالسحر والغموض، قادر على تقبل حكم الإنسان الخارق في ظروف كارثية من صنع الإنسان نفسه، اشتغلت عليها مراكز الدراسات وأدمغة الغرب منذ زمن بعيد.

يشتمل الكتاب على مقدمة وخمسة عشر فصلا نذكر من بينها التجارب الأولى لإعادة صناعة الإنسان والعلماء السحرة، والبحث عن "المعرفة العليا"، والغنوصية.. جوهر الماسونية وقلبها، ونظرية داروين.. عملية اختراق "المستنيرين"، ونظرية التطور وفق الصوفية، ومن أنشأ اليونسكو ولماذا؟ و"العصر الجديد".. النواة الجديدة للحكومة العالمية، وتكنيك "العصر الجديد" من الشامانية إلى المخدرات الإلكترونية، و"مؤامرة الدلو".. والقضاء على المحظورات الأخلاقية، وغيرها.

ورغم أهمية القضايا التي تناقشها الباحثة أولغا تشيتفيريكوفا في كتابها "دكتاتورية المستنيرين" فإنها تصدر عن تمثل ديني مسبق، ينطلق من ثقافة دينية وتقليدية في فهم العالم وتقسيمه إلى محوري الشر والخير، بينما الواقع المعاصر أكثر تشعبا، ولا تقوده الأيديولوجيا التقليدية بل يقوده العلم والمال، وكلاهما ليسا على وئام دائم.

قد تنتهي الأديان في أثوابها التقليدية، ولكن ليس الدين فحسب ما يعطي أخلاقا للإنسان، وقد تنتهي الأخلاق بدورها، لكن ليس بالضرورة أن يكون ذلك بفعل فاعل متمثلا في العلماء التنويريين اللادينيين.

تنويريون يدجنون الإنسان (لوحة للفنان بسيم الريس)